الفصل الأول

قوة أمريكا وهدفها

أتطلع إلى مستقبل عظيم لأمريكا ـ مستقبل تتوافق فيه قوة بلادنا العسكرية مع قيودنا الأخلاقية، وتتوافق فيه ثروتها مع حكمتنا، وقوتها مع أهدافنا.

جون ف. كيندي 1963

أمريكا عظيمة لأنها بلد خيّر، فإن فقدت طبيعتها الخيّرة، لن تظل عظيمة.

أليكسيس دو توكوڤيل 1835

كانت آخر مهمة كلفت بها في مجال عملي العسكري، الذي استمر لأربعة عقود، هي رئاسة القيادة المركزية للولايات المتحدة حيث كنت مسؤولاً عن جميع الأنشطة العسكرية في منطقة متفجرة بالأحداث تضم خمساً وعشرين دولة ـ في شرق إفريقيا والشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا ووسط آسيا، فلسنوات عديدة احتلت هذه المنطقة المركز الملتهب لما يطلق عليه عادة «قوس الاضطرابات» أو «منطقة الصراع» ـ وهو حزام يطوق المساحة الوسطى في الكرة الأرضية ويضم أكثر دول العالم اضطراباً وهياجاً وإزعاجاً، وخلال سنوات عملي العسكري، ثم عملي كدبلوماسي ورجل أعمال، قضيت زمناً طويلاً في كل دولة تقريباً من دول منطقة الصراع، ونشأ لديّ اهتمام

شخصي قوي بكل دولة منها، وكونت صداقات عديدة وصلات شخصية وطيدة في تلك البلاد، وصرت على دراية تامة بالمنطقة.

بعد أحداث 11 سبتمبر مباشرة، تلقيت طوفاناً من الخطابات والرسائل الإليكترونية والمكالمات الهاتفية من كل أنحاء العالم تتضمن التعازي وتعبر عن الصدمة والغضب من الأحداث الرهيبة التي حدثت ذلك اليوم، لكن لم يكن ما شعر به أحد الأصدقاء العرب مجرد انزعاج من الهجمات الإرهابية الصادمة، بل كان يبدو أنه يشعر بالقلق الشديد من شيء أشد تعقيداً، وهذا ما أثار انتباهي.

قلت له عبر الهاتف: «إنني أتفهم ما تشعر به من حزن وشفقة، فأسباب ذلك واضحة، لكن ما يثير فضولي هو ما يزعجك غير ذلك».

فقال: «إن ما يقلقني هو أن هذه المأساة قد تتسبب في ألا تظل أمريكا كما نعرفها».

فطلبت منه أن يشرح ما يقصده.

قال: «إنكم ـ أيها الأمريكيون ـ لا تعرفون مقدار قوتكم، ولا قدر تأثيركم ولا طيبتكم، وإن غضبكم وما تنوون القيام به للانتقام له ما يبرره، لكني أتمنى عند قيامكم بما يجب عليكم عمله للرد على هذه الكارثة، ألا تغيب عنكم قيمكم وحس العدالة الذي تتميزون به فيما تتخذونه من إجراءات، وذلك لصالح العالم، فالعالم يحتاجكم أكثر مما تتصورون.

كان صديقي يردد أمراً معروفاً وواضحاً للجميع حين قال: إننا نحن الأمريكيين لا نعلم قدر قوتنا وتأثيرنا، كان يقول لي: إننا لم نتعلم بحق كيف نستخدم هذه القوة وذلك التأثير للوصول إلى ما نريده أو نحتاجه، وإننا لا نعرف أنفسنا حق المعرفة، بمعنى أنه كان علينا أن نجاهد لصياغة دورنا الصحيح في عالم اليوم، وأن دورنا يتضمن البعد الأخلاقي، وهو بعد جوهري فيما تقوم به أمريكا من أعمال في العالم منذ زمن مؤسسي الدولة الأوائل، ولا يعني هذا أن أمريكا كانت تسلك دائماً سلوكاً قويماً، وإنما كانت توجهنا دائماً محاولة تحري السلوك القويم، كان صديقي يقول: إن أمريكا كانت تسعى دائمًا لفعل الصواب ـ وكان هذا واضحًا لأصدقائنا وأعدائنا على حد سواء.

إنه لأمر عسير أن تعمل داخل إطار من المبادئ، بينما لا يفعل الطرف الآخر ذلك، لكن كان ذلك دائمًا موطن قوتنا.

لكن صديقي ذهب لأبعد من ذلك؛ إذ كان يسألني ضمناً أسئلة مؤثرة وعسيرة عن موقف أمريكا الجديد تماماً وغير المسبوق بعد انتهاء الحرب الباردة، فأمريكا الآن هي آخر ما بقي من القوى العظمى، وأشد الدول قوة ونفوذاً عبر تاريخ الكرة الأرضية، بحسب اعتبارات القوة المذهلة، وهي تمتلك القدرة على رسم جميع أبعاد النفوذ والتأثير في أي مكان على ظهر الأرض، وستكون خيارات الولايات المتحدة هي ما تحدد، بصفة عامة، توجهات سكان الأرض في القرن القادم.

لابد أن نتولى زمام القيادة، وليس لنا خيار آخر، فنحن كغوريلا تزن 800 رطلاً في غرفة مساحتها 80 متراً، وقد لا يعجبنا البقاء في هذا الوضع، ونأمل ألا نسبب إزعاجًا للموجودين في هذه الحجرة عندما نتحرك، وكل من في الغرفة يعرف ذلك، ليس لنا من الأمر شيء فيما نحن عليه، ولا حيلة لنا في أن تأثيرنا يمتد إلى كل ما يحدث في الغرفة.

هذا ما أعتقد أن وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت كانت تقصده، حين لاحظت أن الولايات المتحدة هي «الدولة التي لا غنى عنها»، لم يكن ذلك تصريحاً متعجرفاً؛ بل تقرير لواقع الحال، فنحن الدولة الوحيدة التي يمكنها أن تمنع أعمالاً، أو برامج دولية مهمة عبر أنحاء العالم، أو تسمح بها، وقد لا تروق هذه الحقيقة لأناس داخل بلادنا وخارجها على حد سواء، لكنهم يعلمون أنها صحيحة. وفي كل مكان سافرت إليه عبر أرجاء العالم، كان هذا المعنى يصل إليّ من خلال أصدقائي حين يقولون: «لولاكم لما استطعنا فعل ذلك».

فدون مشاركة الولايات المتحدة في عملية السلام لن يكون هناك سلام في الشرق الأوسط، ولم تكن لتنشأ سياسة بيئية كوكبية دون مشاركة الولايات المتحدة، ولن تنشأ سياسة صحية كوكبية ولا سياسة اقتصادية وتجارية كوكبية، ودون الولايات المتحدة قد لا تذكر الأمم المتحدة.

إن العقدة هنا هي أن خياراتنا لا تتسم بالوضوح، فما معنى زعامة العالم في أجواء ما بعد الحرب الباردة؟ لا أحد يعرف، فلم يصل إلى هذه المكانة أحد من قبل، وليست لدينا أمثلة أو نماذج.

لقد اشتد الجدل حول هذه المسألة خلال الإدارات الأمريكية الثلاث الأخيرة... لكن دون حسم.

فهل نحن شرطي العالم؟ هل نحن إمبراطورية؟ كيف نختار أولوياتنا لما نقوم به في العالم، حين لا يكون بمقدورنا عمل أي شيء؟ ما حدود قوتنا؟ وما حدود أفعالنا؟ وما هو نطاق تأثيرنا؟ وما حدود زعامتنا؟ ما قدر ما نطلبه، وممن نطلبه؟ ما الحريات التي تمنحها لنا، والمسؤوليات التي تمليها علينا مكانتنا المتميزة، ولا تتوفر لغيرنا من لاعبي العالم الأول؟ كيف نتعامل مع المنظمات الدولية وداخلها؟

إن مجرد طرح هذه الأسئلة، ومثلها كثير، يدل على مدى ارتباكنا.

الإمبراطورية الأمريكية

إن إجابتي عن الأسئلة التي تتناول دور أمريكا لن تريح بعض الأمريكيين وكثيراً من غير الأمريكيين: «إننا بالفعل إمبراطورية» وللإمبراطوريات سمعة سيئة، لكن ما من كلمة أخرى تعبر بدقة عن المكانة البارزة التي حققتها أمريكا في العالم، وهذا هو المقصود من أنها «دولة لا غنى عنها» فهي الدولة الوحيدة التي تظهر قوتها ويبرز تأثيرها في كل مكان في العالم. ولم يحدث من قبل في تاريخ الإنسانية أن احتلت دولة هذه المكانة ـ وهي الإمبراطورية الوحيدة

الباقية في العالم، لكنها نوع من الإمبراطوريات تختلف تماماً عن كل الإمبراطوريات الأخرى التي نشأت وانهارت على مر التاريخ.

كان المعتاد أن تولد الإمبراطوريات نتيجة احتلال عسكري، وتضع قوتها العسكرية مقومات تأثيرها. فكانت الإمبراطوريات تجتاح الأراضي المملوكة لدولة أخرى وتفرض سيطرتها عليها وترسل الجيوش لاحتلالها ومراقبة الأمن فيها، ثم ترسل حكاماً وولاة، وتقوم باستغلال الموارد الطبيعية والأيدي العاملة في البلاد المحتلة واستخراج ثرواتها لحساب مركز الإمبراطورية التي كانت تحكم وتأمر فيها كيفما شاءت.

اندثر ذلك النوع من الإمبراطوريات (ولا مانع نظرياً من عودتها مجدداً). أما أمريكا فليست إمبراطورية احتلال أو مصلحة ذاتية، برغم أن البعض يتهمنا بذلك («لا هم لكم أيها الأمريكيون إلا اغتصاب نفط العراق»)، أما مصدر تأثيرنا فيتجاوز قوتنا العسكرية. مع ذلك، فأمريكا إمبراطورية لا يمكنها أن تحكم أو تأمر، وهي لا تريد ذلك، وبإمكانها أن تؤثر فحسب... إنها ليست إمبراطورية احتلال، وإنما هي إمبراطورية ذات نفوذ.

لقد أعلن رئيس الولايات المتحدة للعالم أن الولايات المتحدة تعتزم جعل العالم ديمقراطياً، وأننا سنجعل العالم يعمل حسب اقتصاديات السوق، وأننا سنعزز حقوق الإنسان ونحميها، وأننا سنستخدم كافة عناصر قوتنا ليتحقق ذلك... وجوهر الأمر «أننا» من نحدد كيف تشكل مجتمعك «أنت».

لا أعرف ماذا يمكن أن نسمي تصريح كهذا سوى أنه بيان إمبراطوري.

ولا أقول: إن أمتنا مخطئة في وضعها هذه الأهداف، فهي تروق لي. وإننا لنشعر، بلا مداراة، أن الأهداف صائبة وصالحة وصحيحة على المستوى الأخلاقي، لكنها تعكس قيمنا ومعتقداتنا «نحن».

ذلك هو الحكم الإمبراطوري، أو الاستعمار، ليس الاستعمار بحد السيف، وإنما الاستعمار الذي يتم من خلال الأبعاد الأخرى للقوة ـ قدرتنا التي لا نظير لها على جمع المعلومات ونشرها، ودورنا الدبلوماسي القيادي، ومواردنا الضخمة، وتأثيرنا الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والأخلاقي، وقدرتنا العسكرية.

تلك الأمور تمس كل فرد في العالم، أحيانًا بقوة وبصورة مباشرة (فقد غزونا العراق وأسقطنا نظام صدام حسين بسهولة) وأحياناً بلطف، فكل الناس تستمع للموسيقى الأمريكية، وتشاهد الأفلام الأمريكية، وتتناول الأطعمة الأمريكية، وترتدي طرز الملابس الأمريكية، وقلما تجد أحداً لا ينظر إلى العالم عبر منظار أمريكي، فحتى من يكرهوننا يفهمون عالمهم بالرجوع إلى الثقافة والقيم والقوة الأمريكية.

في أثناء زياراتي للشرق الأوسط كان الناس يمازحونني بقولهم: «هنا يوجد المركز الثقافي الأمريكي».

«المركز الثقافي الأمريكي؟»

«ماكدونالدز وبرجر كينج وكينتاكي».

مع ذلك، برغم قوتنا التي لا مثيل لها، والتي يمكنها الوصول إلى أي بقعة في العالم بكل أبعاد القوة ـ ولا توجد أمة على ظهر هذا الكوكب يمكنها أن تسايرنا حتى ولو في بعد واحد من تلك الأبعاد ـ لم نحقق الأهداف التي لها الأهمية الأكبر بالنسبة لنا في العالم: تعزيز الديمقراطية، واحترام حقوق الإنسان، وإتاحة الفرص للناس لتحسين مستوى معيشتهم، وزيادة الأمن والاستقرار، وهي الأسس اللازمة لتحقيق تلك النتائج السعيدة. إننا في أحيان كثيرة لا نعرف كيف نستخدم قوتنا وتأثيرنا ببراعة، ولا أين نستخدم هذه القوة، ونود أن يسود السلام العالم ويستقر، لكننا لسنا واثقين أي الإجراءات نحتاجها لبلوغ ذلك.

والإخفاق يبدأ من الداخل.

هدف أمريكا

بذل زعماء أمتنا، وهم أناس بارعون ومخلصون ومحنكون في الإدارات الثلاث الأخيرة، جهداً كبيراً للتكيف مع التحول الجذري والخطير الذي زلزل العالم بأسره بعد الحرب الباردة... وقد حققوا قدرًا من النجاح.

كوّنت إدارة بوش الأول، بناء على قرار الأمم المتحدة، التحالف الدولي اللافت للنظر الذي خاض حرب الخليج الأولى، و كان هذا نموذجاً فعالاً ومستمراً للتعامل مع المشكلات المعقدة والأزمات، وبعد

سقوط الإمبراطورية السوفيتية كانت الإدارة بعيدة النظر في محاولاتها (التي أشرف عليها وزير الخارجية جيمس بيكر والسفير أرميتاج) الاتصال سلميًا مع الدول الجديدة التي كانت تشكل الاتحاد السوفيتي ذات يوم، وتزعّم حلف دولي يرمي إلى إطلاق «خطة مارشال» جديدة لمساعدة تلك الدول حتى تعتمد على نفسها. وللأسف، مات حلمهم الكبير في فورة السعادة التي أعقبت تلاشي التهديد العسكري السوفيتي.

أما الجانب السلبي في هذا الأمر فهو أن الإدارة كانت ساذجة في افتراضاتها بشأن ما حدث من تغيرات بسبب انتهاء التهديد السوفيتي، فهم لم يتفهموا البيئة العالمية الجديدة، ووافقوا دون نقاش على شعاراتهم التي تدعو إلى «نظام عالمي جديد» و«إحلال السلام» بصورة آلية، وبعد أن خمدت الفورة، اكتشفنا افتقارنا لهذا وذاك.

كان أسلوب إدارة كلينتون، المتعدد الأطراف والمتعدد الأوجه في مناطق الصراع في العالم، مبادرة ممتازة لإعادة تشكيل العالم بصورة إيجابية، لكن تلك الإدارة لم تمتلك الطاقة والتنظيم والموارد اللازمة لتحقيق ذلك.

أما إدارة بوش الثاني فقد عززت الإحساس الإيجابي الكامل والقوي بالقيم ـ حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية ـ وكانت على استعداد لبذل الجهد والموارد لهذه القضية، إلا أن أسلوبها العدواني أحادي الجانب أدى إلى إقصاء المجتمع الدولي وأحبط التعاون الدولي

اللازم لتحقيق هذه الأهداف، وكان أوضح مثال على الأسلوب الأحادي الذي اتخذته إدارة بوش الثاني هو غزو العراق واحتلاله، وكذلك رفضها وعداؤها لعدد من الاتفاقيات التي لاقت دعماً دولياً واسعاً.

كانت لكل إدارة من إدارات ما بعد الحرب الباردة الثلاث إنجازات حقيقية، لكنها مع ذلك أخفقت جميعاً في:

- فهم معنى تغيرات ما بعد الحرب الباردة فهماً تاماً وفي وضع إستراتيجية متكاملة ومتماسكة لها.
- رؤية علامات عدم الاستقرار الحاد الذي نتج عن بيئة ما بعد الحرب الباردة، أو إدراك أسبابه الكامنة.
- مواجهة الاضطرابات المتصاعدة التي انقلبت إلى مواجهات عنيفة قبل أن تتحول إلى أزمة.
- إيجاد أدوات غير القوة العسكرية لإدارة الأزمة (وعندما لم تجدِ القوة العسكرية نفعًا تركت الأزمة حتى تزداد اشتعالاً أو تتفاقم).
- تحقيق وتعزيز ودعم السلام والاستقرار والنظام فور ظهور حلٍّ للأزمة.
- بذل الوقت والموارد اللازمة للوصول إلى عملية إعادة بناء حقيقية، وإعادة المجتمع إلى الاستقرار ـ أو حتى المحاولة الجادة لتحقيق ذلك.

● إعادة تنظيم بنيتنا الحكومية العتيقة من أجل دمجٍ أفضل لعناصر القوة التي نحتاجها للتعامل مع تهديدات الحاضر ومتطلباته.

ولقد رأينا آثار هذه الإخفاقات مراراً وتكراراً ـ في أفغانستان في ثمانينيات القرن العشرين، وفي الصومال ويوغوسلافيا السابقة في تسعينياته، وفي العراق وأفغانستان حالياً، وفي العديد من الأزمات المشتعلة في إفريقيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية وآسيا.

لماذا أخفق زعماؤنا؟ هل بسبب عجزهم أم بسبب حماقتهم، أم لأنهم كانوا عمياناً؟

ليس لهذه الأسباب، لقد أخفقوا في الأساس لأنهم كانوا يعملون داخل منظومة حكومية وبنية تنظيمية وإستراتيجية قومية استحقت الإعجاب، وحققت نجاحاً عند استخدامها خلال خمسين عاماً هي عمر الحرب الباردة، لكنها لم تتطور لتتكيف مع التغيرات التي اجتاح العالم انتهاؤها المفاجئ.

وقد اتهم النقاد الرئيسين كلينتون وبوش بالإخفاق في اتخاذ قرارات إستراتيجية صائبة لوضع حد لنشاط تنظيم القاعدة، وربما من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ولم تكن هذه الانتقادات الموجّهة لكلا الرئيسين منصفة، فقد اعتمد الرجلان على منظومات وتنظيمات عتيقة فشلت في استقراء التغيرات الحادثة في العالم، وفي تقديم رؤية متكاملة للتهديد المحتمل، وما يلزم من ردود عليه. وكما

ذكرت لجنة الحادي عشر من سبتمبر كان المسؤولون ـ رجالاً ونساءً ـ مخلصين لكنهم يعملون داخل منظومة عتيقة.

وفيما بعد، كانت لدينا خطة للحرب على العراق، وليست خطة لإعادة الإعمار أو تحقيق السلام، كان لدينا تنظيم عسكري يمكنه هزيمة العدو، وليس تنظيماً يمكنه إعادة بناء المجتمع.

واجهت أمتنا مراراً وتكراراً الفوضى والأزمات التي خلفتها الصراعات والاضطرابات، لكن كان ما اخترناه لتحقيق أهدافنا يتسم بعدم الاتساق وبالعشوائية ـ في المبادئ الأساسية ثم في ما تلاها من أفعال.

كان لبعض تلك الأفعال أسباب عملية مقبولة: «فثمة مواقف يستطيع المرء تغييرها ومواقف أخرى لا يستطيع».

لكن بعض العشوائية وعدم الاتساق نشأت عن إخفاقنا في الالتزام بأسس التفكير الإستراتيجي، فقد أعقبت الحربان العالميتان في القرن الماضي تحولات زلزلت العالم بأسره، وكانت تماثل في قوتها تلك التحولات التي أعقبت الحرب الباردة، كان الدرس واحداً في كل مرة: لا يمكن أن ينعم العالم بالسلام والاستقرار إذا ترك كسفينة في البحر بلا مسار ولا دفة. فلابد من وجود خريطة، واتجاه يرشدنا عبر البيئة العالمية الخطيرة المرتبكة، إننا نحتاج إلى إستراتيجية رئيسة للتعامل بصورة منطقية مع مختلف الأجزاء المضطربة التي تمثل تهديدًا للعالم ... إستراتيجية أمن قومي تعيد تحديد دورنا في القرن الجديد، وتحدد أهدافنا، وتشكل مؤسساتنا القومية لتحقيق هذه الأهداف.

إن الصياغة الجديدة للإستراتيجية القومية ستأخذ في اعتبارها التحديات التي برزت في العالم بعدما أعيد تنظيمه في أعقاب انتهاء الحرب الباردة.

ولسوف تنشأ هذه الإستراتيجية من قيمنا ومبادئنا التي نتمسك بها بقوة، ومن مستوى الأمن والرفاهية الذي نريد تأمينه لأنفسنا وللآخرين، وبصفة أساسية السلام والاستقرار والرخاء، وستأخذ في حسبانها مدى توافر الموارد، وما نقرره من أولويات استخدامها، وسوف تأتي هذه الإستراتيجية بتحليل شامل جديد للبيئة التي تواجهنا: بتحدياتها و قضاياها، وأخطارها المحتملة، كما ستعيد صياغة دورنا في العالم ـ وهكذا نجد إجابات لأسئلة مثل: من نحن؟ ماذا نتوقع من أنفسنا؟ وماذا نريد أن نفعل؟ وسوف تقر الإستراتيجية الجديدة صراحة بأننا لا نستطيع فعل كل شيء. فسياسة الاحتواء هي أقصى ما يمكن عمله حيال بعض التهديدات ، وبعضها لا يمكن التعامل معها على الإطلاق، وبعضها لابد من التعامل معه.

ولابد أن تكون الأوضاع الواقعية في العالم، وماذا يجري هناك؟ هي نقطة انطلاقنا.

ينبغي أن ننظر للعالم بكل تفاصيله الدقيقة ـ من دول وأنظمة حكم و توجهات ومشكلات، وكذلك المواقف المضطربة والأزمات والصراعات الناشئة، وعلينا أن نفهم ونقوم بالتحليل والتركيب... قدر ما نستطيع، ومن خلال ذلك ينبغي إيجاد رؤية «واقعية» تجيب عن الأسئلة التالية: عل أي صورة نريد هذا العالم؟ أين تكمن مصالحنا؟

ما الذي يهددنا؟ ما الذي يمكننا عمله في هذا الشأن؟ ما أفضل ما يمكننا تحقيقه؟ وكيف يمكننا الوصول لذلك؟ ما العقبات التي تعترض طريقنا؟... ما الأشياء التي نفعلها فنجلب بها العقبات لأنفسنا؟

ولا تتوقف عملية وضع الرؤية عند الأهداف والغايات، بل تستمر لتحديد الطرائق والوسائل المتاحة لتحقيقها، وليست الإستراتيجية هي منتهى الأمر، بل هي العدسات التي ينبغي علينا أن ننظر من خلالها إلى أفعالنا في العالم، وهي ما توجه هذه الأفعال وترشدها. فما يجري في العالم ولا يكون نابعًا من رؤية إستراتيجية يعد مخاطرة، لأنه يكون عملاً ارتجاليًا وجزافيًا في أفضل حالاته، وفي أسوأ حالاته حماقة وغباء.

ولابد أن تؤدي الإستراتيجية مباشرة إلى أفعال.

ويمكن أن ننظر إلى هذه العملية برمتها من العالم إلى الإستراتيجية وبالعكس باعتبارها جزءاً من دائرة ـ وسأسميها «قوس العمل». ولنبدأ بعالم الواقع بتهديداته وتحدياته، ثم نعود إلى الرؤية الإستراتيجية، ونضع أهدافاً للتعامل مع هذه التهديدات والتحديات، ونبتكر طرائق لتحقيق الأهداف، ثم نعود إلى الأفعال الأساسية التي ينبغي علينا القيام بها في عالم الواقع للحد من التهديدات وتقليص التحديات.

سنجد أن هذه العملية ـ أو هذا القوس ـ متبعة على كافة المستويات في المجتمع، فبناء الإستراتيجية يحدث في العائلات كما يحدث في الدول.

فالأسرة الناجحة لها رؤية إستراتيجية، قد تتضمن توفير منزل أفضل ودراسة جامعية للأطفال، ورعاية طبية جيدة، ثم تقاعد سعيد ومثمر. لكن وجود رؤية إستراتيجية لا يكفي إذ يجب على أفراد الأسرة تفعيل هذه الإستراتيجية، وسيكون عليهم البدء من الظروف الفعلية التي تواجههم، والموارد التي يتوقعون توافرها.

تطور هدف أمريكا

عندما ننظر إلى تاريخنا نرى بوضوح كيف نشأت رؤية أمريكا الإستراتيجية ـ وهدفها القومي ـ في كل مرحلة من مراحل تطورنا، وكيف كان هذا الهدف مفهوماً على وجه العموم، ويقبله الشعب وحكوماته المتعاقبة.

في العقود الأولى لوجودنا كأمة، كنا نركز على إيجاد صيغة خاصة للحكم، ولتنظيم التفاعل بين الولايات. وكان هدفنا في تلك المرحلة هو وضع الأساس لتجربة بارزة في بناء مجتمع إنساني، وتحديد القيم الجوهرية في إطار هذا المفهوم الجديد الجريء.

عقب سنوات الميلاد جاءت حقبة طويلة من التوسع والنمو. وخلال تلك المرحلة كنا نسعى للوصول إلى أقصى حدود قارتنا ونصف الكرة الذي نقع فيه مع الحفاظ على انعزالنا عن المشكلات التي تزعج بقية دول العالم. كان هدفنا واضحاً ـ تحقيق قدرنا الواضح ـ وهو أقصى امتداد لحدودنا القومية والدفاع عن نصف الكرة الأرضية الخاص بنا من الغزوات الاستعمارية التي كانت تقوم بها القوى الخارجية

المتعطشة لإعادة ترسيخ شرور السيطرة الاستعمارية التي حاربناها عند ميلاد أمتنا.

وبعد حل ما تبقى من مشكلاتنا الداخلية، والتي أدت لانقسام أمتنا خلال القرن التاسع عشر، بدأنا في القرن العشرين في الخروج من تلك العزلة التي فرضناها على أنفسنا. فكانت الحرب مع أسبانيا التي تولاها الأسطول الأبيض العظيم بزعامة تيدي روزفلت، ثم قرار وودرو ويلسون بالاشتراك في الحرب العالمية الأولى هما الحدثين اللذين تصدرا غزو الأمريكيين المشهد العالمي. وكانت هذه خطوات جريئة بالنسبة لأمة حولت أهدافها السابقة إلى واقع ملموس، وتقف الآن باتزان لتقوم بدور مهم في العالم الذي ابتعدت عنه بإرادتها لمدة طويلة.

وقد ثبت بعد انتهاء هذه الخطوات المبكرة أنها كانت جريئة أكثر من اللازم. حتى إن أمريكا نظرت إلى أفق العالم الجديد، فجفلت وتراجعت.

كان حلم ويلسون بعالم جديد، والذي عبر عنه في بيانه «النقاط الأربع عشر»، ورغبته في أن ننضم إلى عصبة الأمم، جريئاً للغاية في رأي أمة وكونجرس مازالا يتعاملان بحذر مع «الشراك الخارجية». فقمنا بالارتداد إلى العزلة، وفشلنا في الانتقال إلى هدف قومي جديد كان من شأنه أن يغيّر مسار العالم الذي كان في طريقه إلى تكرار ما سمّي «الحرب التي تنهي جميع الحروب»، وكان في هذه التسمية خطأ مأساوي.

في السابع من ديسمبر عام 1941 انتهت عزلة أمريكا إلى الأبد. فقد كان في هذا اليوم على أمريكا دور كوكبي قاومناه لمدة قرن ونصف القرن. إذ دفعنا الهجوم على ميناء بيرل هاربور إلى التعجيل بتطوير قوتنا ونفوذنا، ما جعل منا في النهاية القوة العظمى الوحيدة في العالم.

وخلال الحقبة التي تمتد من بداية الحرب العالمية الثانية وحتى سقوط الاتحاد السوفيتي، كان دورنا وهدفنا هو الدفاع والمنع باعتبارنا حماة العالم الحر. فوقفنا كالراية التي يلتف حولها، وحائط الصد الذي يحتمي به كل من تهددهم الأيديولوجيات الفاسدة، وحول كل ما يمكن أن تحشدهم الغزاة الجشعون. كنا منارة ساطعة، ونموذجاً للقيم والمبادئ النبيلة.

منذ بداية وجودنا القومي، وحتى انهيار الاتحاد السوفيتي، لم نرغب في التدخل إلا لضرورة، ولم نكن مهاجمين بل مدافعين. قمنا بما كان ينبغي عمله عند التعرض لتهديد أو هجوم، لكننا لم نسع لفرض أي تغيير. كنا نريد أن تظل منارة جيفرسون نموذجاً يحتذى، ولم نشأ أن نصبح كالصليبيين، فاتحين باسم العقيدة.

واليوم ـ حتى في المدة التي أصبحنا فيها نتمتع بقوة لا تباريها أي قوة ـ يواجهنا عالم جديد لم يعرفه أحد من قبل. فلم تعد حدودنا بعيدة عن الاختراق، ولم يعد بإمكاننا الحفاظ على العزلة. بل حتى لا يمكننا الاحتفاظ بوضع الدفاع. فالهدف القومي الذي كان أساس العزلة لن يؤتي ثماراً اليوم، ولا يكفي أن نكون المنارة الساطعة.

وكان الحادي عشر من سبتمبر، مثل السابع من ديسمبر، قد أظهر بوضوح أنه لا يمكننا تجاهل هذا العالم الجديد الذي ازداد خطورة. فهذا العالم يتطلب هدفاً قومياً جديداً، هدفاً يقوم على مقدمة منطقية هي أننا جميعاً نحقق ازدهاراً ورخاء في عالم يتمتع بالسلام والاستقرار، ونخسر جميعاً في عالم تسوده الاضطرابات. لم يعد الأمر لعبة لا غالب فيها ولا مغلوب، ففي الحقبة الاستعمارية والاستيطانية، ربحت الدول والمجتمعات على حساب الآخرين، ولم تعد الحال كذلك. فإذا سلب القوي الضعيف، سينشأ عن الاضطراب الناتج مشكلات من شأنها أن تسبب إزعاجًا شديدًا للقوي.

ليس لدينا خيار الآن، فلابد أن نكون فاعلين، وأن نشارك العالم فيما يحدث فيه. ولا يعني هذا أن علينا فرض إرادتنا ليحدث تغيير، ما لم نتعرض لتهديد مباشر. وإنما يعني أننا نحتاج لأن نستخدم بخفة كل عناصر قوتنا بأسلوب ذكي متكامل، لكي يسود الاستقرار في بقاع العالم التي توجد فيها جذور آلاف المشكلات التي نواجهها. ولهذه الغاية نفسها، يجب أن نستغل موقعنا القيادي لخلق تعاون ومشاركة دولية.

فإن قوس العمل الذي ينشأ فيه الهدف القومي من العالم ثم يعود إلى العالم في صورة أفعال، يبدأ، بالتأكيد، في العالم نفسه.